

# مفهوم القومية في الفكر الإسلامي

د. عرفات كرم مصطفى

*stoniati@yahoo.com*

كوردستان

2009

( إنه لا يخشى أن يفند بقدر ما يخشى أن يساء

فهمه)

الفيلسوف الألماني عمانوئيل

كانت

## تمهيد

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... أما بعد.

فلقد بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم لهداية الناس جميعاً إلى الصراط المستقيم، وبدأت دعوته بين العرب في مكة المكرمة، وذلك لأن الأقربين أولى بالمعروف، وطبيعة رسالات الأنبياء أنها تبدأ بالأقربين ثم الأبعد فالأبعد، وقد كان تركيز رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجانب العقدي والفكري أسوة بجميع الأنبياء والرسل، قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }<sup>1</sup>، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يعير الاهتمام نفسه بالجوانب الأخرى كالجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي وما شاكل ذلك، لأن الأساس لإصلاح الفكر وتقويمه وتوجيهه نحو السبيل الأقوم، مع أن العرب قبل الإسلام كانوا يعانون من مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية، حيث كانوا عالة على الأمم الأخرى كالحضارة الفارسية والمسيحية الرومية، يقول قال ابن خلدون: "ولهذا تجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة، حتى تجلب إليه من قطر آخر، وانظر إلى بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية، كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم عن غيرهم"<sup>2</sup>.

وقد ذكر أبو هريرة (رضي الله عنه) أنه سبت العجم بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنهى عن ذلك، وقال: لا تسبوا فإنها عمرت بلاد الله تعالى، فعاش فيها عباد الله تعالى"<sup>3</sup>. وينضاف إليه أن العرب كانوا يتبعون النظام القبلي حيث كانت القبائل تغزو

<sup>1</sup> سورة الأنبياء الآية 25.

<sup>2</sup> ابن خلدون: المقدمة تحقيق: درويش الجويدي (بيروت: المكتبة العصرية، ط2، 1416هـ، 1996م)

241/1.

<sup>3</sup> الماوردى، أبو الحسن علي بن محمد: أدب الدنيا والدين تحقيق محمد أبو الخير السيد ومحمد الشرفاوي

(بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1447هـ، 2006م) ص201.

بعضها بعضاً، فتتحول صراعاتها إلى حروب طاحنة أو فتنة دموية عنيفة تدوم لسنين طويلة، ولعل الصراع العنيف بين الأوس والخزرج خير دليل على ذلك، ولقد جمع الله بين القبيلتين بمبعث الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى مشيراً إلى ذلك ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾<sup>4</sup>، والغريب أن بعض الباحثين من القوميين العرب يصورون رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلا قومياً عربياً جاء لتوحيد العرب والأمة العربية، مع أن مثل هذه التصورات تخالف فلسفة القرآن الكريم الصريحة الداعية إلى توحيد الكلمة على كلمة التوحيد، وليس على أي أساس آخر، ومن هنا يتبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليوحد الناس على البعد العقدي والفكري، فقد كان العرب قبل الإسلام يعبدون الأصنام البالغ عددها ثلاثمائة وستين صنماً، جلبها لهم عمرو بن لحي، لأنه هو أول من غير دين إبراهيم، وحمل العرب على عبادة الأصنام، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى عقوبته في جهنم<sup>5</sup>.

ولا يعني هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم أزاح المفاهيم الاجتماعية المتعارف عليها، وخاصة بين العرب، حيث إن العرب يعيرون اهتماماً بالغاً بالأصول والأنساب والقبائل والقوميات والشعوب والأمم والملل، وقد اشتهر من بينهم من له باع طويل بهذه الأمور، ويطلقون عليه النسابة، وكان أبو بكر رضي الله عنه منهم، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء واعترف بهذه المفاهيم ووقرها وحسب لها حساباً، وهذا تطبيق عملي لفلسفة القرآن الكريم، وخاصة في آية صريحة جلية تتحدث عن ذلك، وهي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>6</sup>. وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يترك المرء مُفْرَجاً حتى يضمه

<sup>4</sup> سورة آل عمران الآية 103.

<sup>5</sup> ولفظ الحديث: "رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب يجر قصبه في النار". رواه البخاري في باب إذا انفلتت الدابة، رقم الحديث (1136) ومسلم في باب النار يدخلها الجبارون رقم الحديث (5096) واللفظ لمسلم.

<sup>6</sup> سورة الحجرات الآية 13.

إلى قبيلة يكون منها<sup>7</sup>. وفي آية أخرى جعل الاختلاف في الألوان التي هي الأجناس والقوميات والشعوب والملل، والألسن التي هي اللغات واللهجات المتنوعة العديدة من آيات الله، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>8</sup>.

ولقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم افتخر بالانتساب إلى قومه في يوم حنين، وهو على بغلته قائلاً: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"<sup>9</sup>. وعليه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر على أحد من أصحابه عندما كان ينتسب إلى قبيلته، بل كان يسأل عن قبائل أصحابه ليزداد معرفة بهم، ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم أنكر على بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وجابان الكوردي عندما كانوا يذكرون أصلهم وكنيتهم، بل كان أمراً طبيعياً بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم وهكذا بالنسبة لأصحابه رضي الله عنهم.

وسنحاول إلقاء الضوء على بعض هذه المسائل المهمة في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

---

<sup>7</sup> الماوردي: أدب الدنيا والدين ص222. قال الرياشي: والمفرج بضم الميم وفتح الراء الذي لا ينتمي إلى قبيلة يكون منها.

<sup>8</sup> سورة الروم الآية 22.

<sup>9</sup> رواه البخاري باب من قاد دابة غيره رقم الحديث 2709 ومسلم باب في غزوة حنين رقم الحديث

## مفهوم القومية

القومية *Nationalism* انتساب حضاري وانتماء قومي لشعب معين مع عناصرها المعروفة كالوطن والتاريخ والجنس واللغة والثقافة وما له صلة بها، والقومية نوعان:

### أولاً) القومية الطبيعية

القومية ظاهرة طبيعية في سايكولوجية الإنسان، وتتجلى ذلك من خلال حب الوطن واللغة والجنس والتاريخ وما شاكل ذلك، وهذه السمة عامة يشترك فيها جميع البشر سواسية من ذوي الفطر السليمة، فقدمتا قالت الهنود: " حرمة بلدك عليك مثل حرمة والديك، لأن غذاءك منهما، وغذائهما منه أي البلد". بل إن سقراط طلب أن يعالج المريض بعقاقير بلده، حيث قال: " يداوى كل عليل بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تتطلع لهوائها، وتنزع إلى غذائها". وتتجلى هذه المسألة في الإسلام أكثر من خلال سلوكيات الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه عندما أخرج من مكة المكرمة، وهي مسقط رأسه، قال: " والله إنك لخير أرض، وأحب أرض الله إلي، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت"<sup>10</sup>. مع أن مكة المكرمة معروفة بمناخها الخانق، وحرها الشديد، وجبالها الملساء، ومع ذلك فقد اشتاق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها أشد الاشتياق، وهكذا أصحابه رضي الله عنهم.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: " لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله - والموت أدنى من شرك نعله.

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة - بواد وحوالي إذخر وجليل .

وهل أردن يوماً مياه مجنة - وهل يبدون لي شامة وطفيل .

وقال: اللهم إعن شيبه بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميه بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدنا، وصححها لنا، وانقل حماها إلى

---

<sup>10</sup> رواه أحمد من حديث عبد الله بن عدي رقم الحديث 18737 والترمذي باب فضل مكة رقم الحديث

3925 وابن ماجه باب فضل مكة رقم الحديث 3108 والدارمي باب إخراج النبي صلى الله عليه وسلم 2510.

الجحفة، قالت: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، قالت: فكان بطحان يجري نجلا، تعني ماء آجنا"<sup>11</sup>. بل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتلهف لرؤية القادمين من مكة المكرمة لكي يسأل عن أجواءها وجبالها وماءها وشعابها، وذلك حتى يخفف عن حرقة غرته، وشدة حنينه إلى وطنه، وهكذا بقية أصحابه يحملون الشعور والاحساس نفسه تجاه مكة المكرمة، ولما قدم أصيل الغفاري على رسول الله من مكة قبل أن يضرب الحجاب على أزواج رسول الله فقالت له عائشة: كيف تركت مكة؟ قال: اخضرت اجنابها وايضت بطحاؤها واعذق إذخرها وانتشر سلمها، فقال رسول الله: حسبك يا أصيل لا تحزنا"<sup>12</sup>.

وليس هذا فحسب بل لقد اشتاق رسول صلى الله عليه وسلم إلى ما هو أصغر وأقل شأنًا مقارنة بمكة، وهو جبل أحد فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر أخدمه فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم راجعا وبدا له أحد قال: "هذا جبل يحبنا ونحبه"<sup>13</sup>، وعن جابر بن سمرة قال: صلى الله عليه وسلم: "إني لأعرف حجرا في مكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن"<sup>14</sup>. وهذا إن دل على شيء دل على عمق وأصالة حنين رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مسقط رأسه، وحبه لوطنه وأرضه. والقرآن الكريم يشير إلى هذه القضية بصورة غير مباشرة، وهو يتحدث عن صعوبة فراق الوطن على كل إنسان، ولذلك جمع بينه وبين قتل النفس في آية واحدة، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا﴾<sup>15</sup>، وكان أكبر تهديد للأنبياء هو الطرد من البلد والقرية والوطن، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾<sup>16</sup> ولأجل

<sup>11</sup> رواه البخاري باب عيادة النساء والرجال رقم الحديث 5330.

<sup>12</sup> ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة تحقيق علي محمد الجاوي (بيروت، ط1، دار الجيل، 1412هـ، 1992م) 92/1.

<sup>13</sup> رواه البخاري باب فضل الخدمة في الغزو رقم الحديث 2732 ومسلم باب فضل المدينة رقم الحديث

3387.

<sup>14</sup> رواه مسلم في صحيحه باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم رقم الحديث (6078).

<sup>15</sup> سورة النساء الآية 66.

<sup>16</sup> سورة إبراهيم الآية 13.

ذلك اقتنع البدوي ببدائوته مع شدة الحرارة، وجفاف الغبار، واقتنع الحضري بحضارته وتمدنه مع كثرة الضحج والضحج، ومرارة التلوث من جراء التطور الصناعي المذهل، والزحام الشديد في كل مكان، ولهذا قال عمر بن الخطاب: "لولا تفرق أهواء العباد لما عمر الله البلاد"<sup>17</sup>. فلو أن الناس جميعاً أرادوا العيش في القرى، وتركوا المدن لاختلت الموازين الحياتية، ولأصبحت الحياة مشلولة تماماً، وهكذا العكس، فلو اختار الناس كلهم السكن في المدن، وتركوا القرى لانهارت الثروة الزراعية والحيوانية وما إلى ذلك، ولكن شاءت قدرة الله أن يرضى كل إنسان بقسمته، أي بوطنه وأرضه ومسقط رأسه ومدينته وقرينته، وهو غير راض أن يبدله بغيره مهما كان نوع ذلك الغير، وهنا أتحدث عن الفطر السليمة، وعن الحياة الهادئة المستقرة، فالحالات غير الطبيعية والطارئة لا يمكن إدراجها في هذا الإطار المحدود، وقديماً قال ابن الزبير: "ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم"<sup>18</sup>.

وعندما استقر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة لفترة كافية، وتأقلم معها، بعد أن حبب الله إليه المدينة، استجابة لدعاءه صلى الله عليه وسلم، عاد ليشترك إلى المدينة عندما كان يفارقها لفترة، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر فأبصر درجات المدينة أوضع ناقته<sup>19</sup>، وإن كانت نائمة حركها"<sup>20</sup>.

ولا ريب أن حب الوطن وعناصرها المعروفة لا ضير فيها، فلقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أمن العصبية أن يحب الرجل قومه، فقال: لا، ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم"<sup>21</sup>. ومن هنا تتجلى هشاشة فكرة أولئك الذين يحولون مثل هذه المفاهيم الطبيعية إلى جاهلية جهلاء، وإلى وصفها بأوصاف خطيرة قد تخرج المرء من الإسلام.

---

<sup>17</sup> المحاضر: رسالة الحنين إلى الأوطان من سلسلة رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت، دار الجيل، ط1، 1411هـ، 1991م) 401/1.

<sup>18</sup> المصدر السابق 401/1.

<sup>19</sup> أسرع بها اشتياقاً إلى المدينة المنورة.

<sup>20</sup> رواه البخاري باب من أسرع ناقته إذا بلغ رقم الحديث 1708، قال البخاري: زاد الحارث ابن عمير عن عمير: حركها من حبها، وقال ابن حجر في فتح الباري: "وفي الحديث دلالة على فضل المدينة وعلى مشروعيتها حب الوطن والحنين إليه. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري تحقيق (بيروت، دار المعرفة، 1379هـ) 621/3.

<sup>21</sup> رواه أحمد عن كعب بن عياض رقم الحديث 17507 وابن ماجه باب العصبية رقم الحديث 3949.



ولقد فضل الله المهاجرين على الأنصار لأنهم قدموا تضحيات عديدة، منها تركهم لأوطانهم، قال تعالى { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }<sup>22</sup>. وفي السنة النبوية نجد أن الزاني البكر غير المحصن يعاقب بالجلد مائة مع التغريب لعام أي نفي سنة كاملة<sup>23</sup>، لأن فراق البلد ولو لفترة قصيرة عسير على النفس، وسيكون درسا له ولغيره، ولكي ينسيه هذا التغريب جريمته ومكانها ووقتها، وكأن بقاء الإنسان سنة واحدة في الغربة كافية لكي يطلق عليه اسم الغريب، ولكي يتجرع مرارة الغربة وحرقتها.

وقصة ميسون بنت بحدل الكلبية لما تزوجت بمعاوية بن أبي سفيان تؤكد حقيقة ما ذكرناه، فميسون كانت امرأة ذات حسن وجمال من أهل البدو، فادخلت قصرا، وغدت أميرة في قصر زوجها معاوية بن أبي سفيان، فقالت، وهي تصف حالها:

لبيت تخفق الأرواح فيه	أحب إلي من قصر منيف
وأصوات الرياح بكل فج	أحب إلي من نقر الدفوف
وكلب يتبع الأظعان صعب	أحب إلي من هر أليف
ولبس عباءة وتقر عيني	أحب إلي من لبس الشفوف
وخرق من بني عمي نجيب	أحب إلي من عالج عليف.

فطلقها معاوية بسبب هذه الأبيات<sup>24</sup>.

### ثانيا) القومية غير الطبيعية.

وهي القومية الإيدولوجية السياسية، وهي عندما تتحول إلى أداة سياسية ثقافية لتحقيق مآرب غير شرعية وغير محمودة، فهذا النوع قد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عنه، وشدد النكير على أصحابه. والقومية التي تحمل هذه الخصال تغدو مرفوضة، ويمكن تصنيف ذلك إلى ثلاث حالات:

<sup>22</sup> سورة الحشر الآية 8.

<sup>23</sup> رواه البخاري باب الاعتراف بالزنا رقم الحديث 6440 ومسلم في باب حد الزنا رقم الحديث 4509.

<sup>24</sup> أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري: شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق محمد محي

الدين عبد الحميد (مصر، مطبعة السعادة، ط11، 1383هـ، 1963م) ص65.

## الحالة الأولى: القومية كأداة لظلم الآخر

إن القومية مرفوضة عندما تتحول إلى أداة لظلم الغير، وهضم حقوقه، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فعندما سئل، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه، فقال: لا، ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم<sup>25</sup>. فالعصبية: "أن يدعو الرجل إلى نصرته عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين"<sup>26</sup>. وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: "من قاتل تحت راية عمية<sup>27</sup> يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتل، فقتلته جاهلية"<sup>28</sup>. بل إن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عما هو أشد من ذلك، أي نهى عن الانتساب إلى أي قبيلة أو قومية عندما تتحول تلك إلى تشاجر وشقاق ونزاع، ففي إحدى الغزوات ثاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع أنصاريًا، فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا لأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "ما بال دعوى أهل الجاهلية"<sup>29</sup>. فالملاحظ أن ذينك الاسمين وهما المهاجري والأنصاري من الأسماء الشرعية الثابوية في القرآن الكريم والسنة النبوية، ولكن لما تحول الاسمان كلاهما إلى شقاق ونزاع وتناحر، نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الانتساب إليهما، وأنكر التسمية بهما لكونهما تحولتا من مسارهما الطبيعي إلى مسار سياسي أيديولوجي خاطيء، قريب من العصبية والعنصرية والتمييز والتفاخر. وعليه فإن الانتماء إلى القومية من أجل التعارف والتعاون والتكافل والتضامن والمصلحة العامة أمر طبيعي وضروري، ولهذا نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المؤيدين لأي أمر فيه الخير والصلاح والاتفاق القومي، حيث قال: "لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان، ما أحب أن لي

<sup>25</sup> سبق تخرجه.

<sup>26</sup> ابن منظور: لسان العرب (بيروت، دار صادر، ط1، د.ت) 607/151.

<sup>27</sup> عمية بضم العين وكسرهما، أي عمياء كما قال الإمام أحمد بن حنبل.

<sup>28</sup> رواه النسائي في باب التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية رقم الحديث 3580 وابن ماجه في باب

العصبية رقم الحديث 3948.

<sup>29</sup> رواه البخاري باب سورة المنافقون رقم الحديث 4622 ومسلم في باب نصر الأخ ظلما أو مظلوما رقم

الحديث 6748.

حمر النعم، ولو دعيت في الإسلام لأجبت"<sup>30</sup>. علما أن حلف الفضول كان حلفا قوميا بجنا تأسس من أجل مساعدة الفقير والمظلوم والمهضوم، ولا بأس بذلك لأن فيه خيرا ومصلحة عربية عامة آنذاك، ثم بين صلى الله عليه وسلم أن لو كان هناك الآن أي حلف آخر يضاهي حلف الفضول لما تردد في مساندته والمشاركة فيه بقوة، للمصلحة الإنسانية العليا.

### الحالة الثانية: القومية السياسية العنصرية

عندما تتحول هذه القومية إلى أداة ثقافية وسياسية لفرض نفسها على غيرها من القوميات الأخرى، ومن الواضح الجلي أن القرآن الكريم لا يفرق بين اللغات والأقوام، فأفضلهم أقربهم وأخلصهم وأتقاهم إلى الله، أما المعايير الأخرى فهي غير مقبولة أصلا، بل هي مرفوضة، وعليه، فإن الاختلاف والتنوع والتباين في الألوان والألسنة من آيات الله العظيمة، فالألوان في التعبير القرآني يعني التنوع في القوميات والشعوب والملل والأمم، والاختلاف في الألسن أي الاختلاف في اللغات واللهجات، فهي جميعها متساوية في القدر والفضيلة، لا فضل لجنس على آخر، ولا للغة على أخرى"<sup>31</sup>. {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ}"<sup>32</sup>. والقومية التي تفرض نفسها على غيرها، أي أنها تفضل نفسها على غيرها، وتزدرى غيرها، وتنقص من قدرها بل تحقرها، وإلا ما سبب هذا الفرض، والقرآن الكريم صريح في هذه المسألة، حيث يقول الله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}"<sup>33</sup>، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المسألة بوضوح، فعن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام

<sup>30</sup> رواه النسائي في السنن والآثار باب إعطاء الفيء على الديون رقم الحديث 4212 ورواه البخاري في الأدب المفرد باب حلف الجاهلية رقم الحديث 567 وراه ابن حبان في صحيحه باب كتاب الإيمان رقم الحديث 4373.

<sup>31</sup> ولقد فصلت القول في هذه المسألة في رسالتي تاريخ التعريب الديني (كوردستان، أربيل، مطبعة جامعة صلاح الدين، 2006م).

<sup>32</sup> سبق تخريج الآية.

<sup>33</sup> سبق تخريج الآية.

التشريق، فقال: أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى"<sup>34</sup>. ولا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم أزاح مفهوم الانتساب إلى القوميات والقبائل والعشائر والقرى، بل أكد عليها من أجل تحقيق مفهوم التعارف الوارد في القرآن الكريم، ولعل ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ترسيخ لهذا الذي ندندن حوله، فقد قال: "تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد، إذا سئل أحدهم عن أصله؟ قال: من قرية كذا"<sup>35</sup>. وفي هذا الأثر - الذي يبدو لي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم - إشارة واضحة إلى أن ثمة فرقا بين عادة العرب وعادات العجم، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه استنكر على ذلك الرجل العربي عندما سأله، من أين؟ فقال من قرية كذا، لأنه ليس من عادة العرب الانتساب إلى القرى، بل الأولى الانتساب إلى القبائل، لأن الانتساب إلى القرى عادة العجم، كالفرس والترک والكورد وغيرهم من الأقوام، ولهذا عرف أكثر علماء العجم بقراهم، واشتهروا بالانتساب إليها، لا بقبائلهم، ولا يعني هذا أن العجم لا نسب لهم، وأن العرب لا قرى لهم، بل إن النظام الاجتماعي فرض هذا النوع من التصنيف، وغدا عرفاً متبعاً يصعب الانفكاك عنه.

وأمر آخر من الحالة الثانية أن أي قومية عندما تفرض نفسها على غيرها، فهذا تغيير للنظام الإلهي الذي وضعه، فالله هو الخالق للبشرية، وهو الواهب للغاتها، فلا تبديل لخلق الله، وأي تبديل لخلق الله افتتات على الله تعالى، وهذا مرتعه وخيم، يقول القرطبي: "خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنساباً وأصهاراً وقبائل وشعوباً، وخلق لهم منها التعارف، وجعل بها التواصل للحكمة التي قدرها وهو أعلم بها، فصار كل أحد يجوز نسبه، فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحد بقذفه، مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه، بقوله للعربي: يا عجمي، وللعجمي، يا عربي، ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة"<sup>36</sup>.

### الحالة الثالثة: أن تحل القومية محل الدين

<sup>34</sup> رواه أحمد بن حنبل في مسنده رقم الحديث 22391. باب حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورواه البيهقي في شعب الإيمان باب وما يجب حفظ اللسان منه رقم الحديث 5137.

<sup>35</sup> ابن خلدون: المقدمة 1/132.

<sup>36</sup> القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (د.م. دار الكتاب العربي، 1387هـ، 1967م) 17/342-343.

وهذه أخطرها، وقد حصل هذا في تاريخ الإنسانية، حيث أصبحت القومية ديناً لدى البعض، يقدم على كل شيء، وقد بدأ ذلك في أوروبا بعد الثورة الفرنسية *French Revolution* (1798م)، وبعد أن بلغت الثورة أوجها بواسطة الحركات التنويرية *Enlightenment Movements* وروادها أمثال فولتير الفرنسي *Voltaire* (ت1778م)، إلا أن برتراند رسل أشار إلى الحركة الرومانتيكية *Romanticism* التي ظهرت كرد فعل للحركة التنويرية: "والتي عملت على تقوية الفوارق القومية، وساعدت على ظهور تصورات صوفية للوطنية... هذا الشعور القومي الجديد أصبح له السيطرة على القوى التي أشعلت ثورة 1789" <sup>37</sup>. ولقد غدت القومية في أوروبا أداة سحق ومحق للشعوب، فكانت الحروب الملتهبة، والمعارك الطاحنة وراء ذلك، تقول كارين أرمسترونغ وهي تتحدث عن الثورة الفرنسية في كونها: "بدأت بمثل عليا، لكنها ما لبثت أن انحطت إلى فوضى وسفك دماء ووحشية... فعندما تضرب النزعة القومية وحدها جذورا بين الناس، من المحتمل أن تحط من قيمة روحهم وإنسانيتها، على أن تعليها" <sup>38</sup>، وما حرب العالمية الأولى سنة (1914م) إلا حصاد مر لهذه الفلسفة العنصرية، ولعل الحركة النازية التي قادها أدولف هتلر الألماني *Adolf Hitler* (ت1945م) والحركة الفاشية التي قادها موسوليني الإيطالي (ت1945م) *Benito Mussolini* خير مثال يجسد هذه الحقيقة، فكانت الحركتان كلتاهما متطرفتين في الدعوة إلى تفضيل الجنس الألماني والإيطالي على الأجناس الأخرى، وقد كان هتلر على قناعة بضرورة محق اليهود، لأن الجنس الآري التيتوني أفضل من الجنس السامي، وهذا يذكرنا بما قاله ساندرسون في مقولته الشهيرة: "الجنس الآري العظيم وحده القادر على قيادة البشرية نحو طريق الحرية الدينية والسياسية والحرية الفكرية" <sup>39</sup>. يبدو أن هتلر تأثر بفلسفة هيجل (ت1831م) *Friedrich Hegel* وفشته (1814م) *Johann Gottlieb Fichte* يقول

<sup>37</sup> برتراند رسل: *حكمة الغرب* ترجمة د. فؤاد زكريا (الكويت)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (1983م) 109/2 وما بعدها.

<sup>38</sup> كارين أرمسترونغ: *النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام*، ترجمة: محمد الجوراء (دمشق)، دار الكلمة، ط1، (2005م) ص205.

<sup>39</sup> أليكس، جورافسكي: *الإسلام والمسيحية*، ترجمه عن الروسية: خلف محمد الحداد (الكويت)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (1417هـ، 1996م) ص24.

فشته في كتابه نداءات إلى الأمة الألمانية: "كون المرء أخلاقيا وكونه ألمانيا هما شيء واحد"<sup>40</sup>. ويتطرف هيجل ويبالغ قائلا: "الألمان هم وحدهم الذين تفهموا الحرية بنطاقها الكلي الشامل"<sup>41</sup>. والذي رسخ هذا الفلسفة العنصرية قبل هؤلاء كلهم الفيلسوف أرسطو(ت322ق.م) Aristotle ، فعندما تحدث عن الدولة المثالية قال: "ولا بد أن يكون مواطنوها من الإغريق، لأن هؤلاء هم الذين يجمعون بين حيوية الشعوب الشمالية، وذكاء الشعوب الشرقية"<sup>42</sup>. ثم يقارن أرسطو بين اليونانيين وغيرهم، حيث كان يطلق وصف البرابرة على غير اليونانيين، قائلا: "فاليونانيون أعلى بطبيعتهم من البرابرة"<sup>43</sup>. وقد كانت هذه الفكرة العنصرية موجودة عند الفرس، فعندما ساعد ملك الفرس أنوشيروان ملك اليمن سيف بن ذي يزن، وحررهم من الحبشة، قال ملك الفرس: "يجوز للفرس أن يتزوجوا النساء العربيات، ولا يجوز العكس". والغريب أن هذا الفقه المعوج نجده عند بعض علماء الإسلام في منعهم الزواج بين العرب وغيرهم، لأن المرأة غير العربية دون مستوى العربي، فالعربي أعظم شأنًا ورتبة وقدرًا، فلا يمكن حصول هذا الأمر، وهذا فقه عفى عليه الزمن وشرب.

ثم تغلغت هذه الفكرة العنصرية في العالم الإسلامي، وخاصة لدى الفرس والأتراك والعرب المسيحيين، وبعض المثقفين الكورد، ففي إيران دعا القوميون الفرس إلى استرداد الحضارة الفارسية، وديانتها الزرادشتية، ومن هؤلاء أخومند زاده وميرزا أغاخان كرماني وتالييوف، فقد كتب أخوند إلى صديقه وهو ينصحه بالحفاظ على الزرادشتية، والوقوف بعزم ضد اعناق الإسلام<sup>44</sup>.

وفي تركيا أثناء فترة العثمانيين دعا القوميون الأتراك إلى رفض النموذج الديني، وتقليد الغرب في كل شيء، وقد ظهرت جمعية الفتاة(1889) وجمعية الاتحاد والترقي(1899م)

<sup>40</sup> برتراند رسل: حكمة الغرب 127/2.

<sup>41</sup> المرجع السابق 133/2.

<sup>42</sup> المرجع السابق 145/1.

<sup>43</sup> المرجع السابق 143/1.

<sup>44</sup> آزر طبري: دور رجال الدين في سياسات إيران الحديثة، انظر: الدين والدولة في إيران، مجموعة مقالات

لكبار المفكرين الغرب، ترجمه أستاذنا الدكتور عرفان عبد الحميد فتاح(ماليزيا، دار التجديد، ط1، 1423هـ، 2002) ص24-25.

واستطاعت هذه الحركات القومية المعادية للدين القضاء على الدولة العثمانية سنة (1924م) - حكمت الامبراطورية أكثر من خمسة قرون - والتي كانت تمثل السلطة الدينية الوحيدة للعالم الإسلامي في مواجهة أوربا. كانت هذه الدولة هي الأخرى تتصرف كبقية الدول القومية العنصرية، ومما يؤيد كلامنا أن هذه الدولة كانت تدرّب أبناء السلاطين الصغار لكي يتعلموا كيف يحكمون شرقي أناضول، فلو ذهب وزرت قصور السلاطين لوجدت مكانا مخصصا لهذا الغرض، والحقيقة أن هؤلاء السلاطين الصغار كانوا يعينون بدل الأمراء الكورد في كوردستان، لأن الإنسان الكوردي بطبيعته لا يستطيع أن يصبح أميرا أو باشا بخلاف الإنسان التركي، وقد تم القضاء على الإمارات الكوردية الثماني عشرة، واستبدلوا الأتراك بالأمراء الكورد.

وأمر آخر يضاهي ما سبق من حيث الأهمية من الناحية السياسية، فقد طلب الأستاذ صلاح الخالدي أن يؤلف كتابا في قواعد اللغة الكوردية، لكن تم رفض طلبه<sup>45</sup>، وكان من أهم بنود ثورة الشيخ عبد السلام البارزاني، جعل اللغة الكوردية اللغة الرسمية في كوردستان، وخاصة في مجال التعليم، إلا أن العثمانيين رفضوا طلبه، وأعدمو الشيخ في سنة (1914م)<sup>46</sup>. وعليه، فإن هذه الدولة التي كانت تدعي الإسلام، وتحكم باسم الإسلام لقرون، كانت قومية عنصرية، ظاهرها الدين لاستغلال الشعوب وإذلالها، وباطنها التتريك والعثمنة من أجل تحقيق مصالحها القومية، فتحقيق فلسفة الدين الحقيقية كان أمرا هامشيا غير ذي بال، ناهيك عن رفضهم لأي شيء يخالف إرادتهم، أو يهدد مصالحهم القومية. يقول الكاتب التركي محمد شواقي (ت1870م): "ولقد حان الوقت لتعيد دولتنا النظر في سياستها، فتحذو حذو إيطاليا وبروسيا اللتين صارتا دولتين قوميتين، إن ما ينبغي أن تفعله دولتنا هو توحيد المسلمين في نطاق القومية العثمانية الشاملة... ثم قال: أفلا يعرف وزراؤنا أن القوميات بالمفهوم الغربي الفرنسي مشكلة أوربية خاصة لا شأن لنا بها، إن الخوض في مسائل الأعراف والمحليات سوف يعني دمارنا وخراب دولتنا، إن وحدة الدولة ووحدة القومية

---

<sup>45</sup> كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي (بيروت، دار العلم للملايين، ط2، 1979م) ص63.

<sup>46</sup> إسماعيل، زبير بلال: ثورات بارزان 1907م - 1935م (كوردستان، مطبعة وزارة الثقافة، ط1، 1988م) ص36.

عندنا قائمتان على وحدة الدين، وليس على الوحدة العرقية"<sup>47</sup>. وقد وقع الكاتب في تناقضات جلية، حيث يدعو في البداية إلى الوحدة العرقية، وهي الاتفاق على الدولة التي يحكمها العثمانيون، وفي النهاية يدعو إلى الوحدة الدينية، ولكن في النهاية فالكاتب يدعو بطريقة أو بأخرى إلى وحدة دينية تجمع المسلمين من الشعوب والأمم الأخرى، وتجعلهم تابعين لهذه الدولة، وهذا استغلال للدين للمصالح القومية والعرقية.

أما بالنسبة للعرب فقد تطرفوا أكثر، مع أن المنطق يقتضي خلاف ذلك، ولكن يبدو أن تأثير المسيحيين العرب كان قويا وبلغا، ومن دعاة القومية العربية لتحل محل الدين بطرس البستاني وناصر اليازجي وفارس الشدياق وميشيل عفلق ونجيب حداد، ففي سنة (1904م) أسس نجيب عازوري المسيحي حزبا عربيا من أجل الوحدة العربية، وفي سنة (1913م) عقد مؤتمر في باريس حول رابطة القومية العربية تحل محل الرابطة الدينية، وقد كان جل المشاركين من المسيحيين". وحتى المسلمون العرب تورطوا في مثل هذه الأفكار الغربية، وبدأوا بتأويل النصوص الدينية وتفسير الوقائع التاريخية وقراءتها قراءة قومية عنصرية، يقول علي حسني الخربوطلي في كتابه محمد والقومية العربية: "فلا عجب أن نعتبر القرآن الكريم باعثا على ظهور القومية العربية"، ثم قال: "إن النبي صلى الله عليه وسلم هو الرجل الأول الذي نعتبره مثال الروح العربية". وقال مصطفى قايي، وهو مدرس الأزهر: "إن سعد زغلول أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم، وإنه جاء بما لم يأت به النبي صلى الله عليه وسلم، وإنه رسول الوطنية"<sup>48</sup>. كل هذا لأن سعد زغلول (ت1919م) قاد معركة ضد بريطانيا لتحرير مصر، فاستقلت مصر، وصدر الدستور للبلد سنة 1923م<sup>49</sup>. بل الأدهى

---

<sup>47</sup> رضوان السيد: سياسات الإسلام المعاصر (بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1418هـ، 1997م) ص62-63.

<sup>48</sup> فاروق حمادة: بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر (دم، دار الثقافة، ط1، 1407هـ، 1989م) ص316.

<sup>49</sup> رضوان السيد: سياسات الإسلام المعاصر ص62-63.



من ذلك أن أحدهم جعل الإسلام - الذي هو دين إلهي معصوم خالص، لا علاقة له بالإبداع الإنساني البتة- من مفاخر القومية العربية<sup>50</sup>.

ولقد قال الشاعر اللبناني رشيد سليم الخوري:

بلادك قدمها على كل ملة      ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم  
هبوني ديناً يمنح العرب وحدة      وسيروا بجثمانني على دين برهم  
سلام على كفر يوحد بيننا      وأهلاً وسهلاً بعده بجهم  
ولعلنا لا نلوم هذا الشاعر لتوجهه المعروف، ولكن اللوم على أمير الشعراء أحمد شوقي الذي قال:

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم      أن تجعلوه كوجهه معبوداً  
ولوا إليه في النهار وجوهكم      وإذا فرغتم واعبدوه هجوداً  
وهذا ما ينطبق عليه ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني (ت728هـ): " وكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن، من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة، فهو من عزاء الجاهلية"<sup>51</sup>. ولقد حدث ذلك بالفعل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، عندما تشاجر المهاجري والأنصاري، وكادت تتحول إلى فتنة مظلمة لولا تحذير رسول الله وزجره من ذلك، وقد سلف الحديث عن ذلك، أما عندما لا يخرج ذلك عن الإطار الطبيعي الشرعي وهو ما ذكرناه سابقاً، فلا بأس بذلك من الناحية الشرعية.

### ملاحظات نحو القومية الكوردية

دأب بعض الباحثين من العرب، وتبعهم بعض الإسلاميين من الكورد عند حديثهم عن القومية الكوردية في كونها هي الأخرى تأثرت بالفكر القومي العام في أوروبا والأمم المجاورة، والحقيقة أن الأمر ليس كذلك، لأن القومية الكوردية من إفرازات الواقع الكوردي المؤلم، نتيجة سياسات الدول التي تحكّمهم، وهي معروفة سابقاً وحاضراً، ولأجل ذلك نلفي

---

<sup>50</sup> وهو الدكتور أحمد غراب في مقدمة كتاب أبي الحسن العامري: الإعلام بمنابح الإسلام ( القاهرة، دار الكتاب العربي، د.ط.1387هـ، 1967م) ص53.

<sup>51</sup> ابن تيمية الحراني: مجموع الفتاوى الكبير (د.م.ن.ط.1398هـ، 324/28).

للقومية الكوردية خصائص ومميزات تصنفها ضمن إطار القومية الطبيعية التي سبق الحديث عنها، ويمكن أن نوجز أهم تلك الخصائص والمميزات:

1) كانت القومية الكوردية في مسارها الطويل وسيلة طبيعية لصناعة كيان قومي وسياسي يحمي الكورد من الظلم والاضطهاد، ويصونهم من الذوبان والانذثار، ولعل ما كتبه شعراء الكورد عبر التاريخ يثبت هذه الحقيقة، ومثال ذلك ما زبره يراع الشاعر أحمد خاني في ملحمة (مم وزين) فلقد كتب تلك الملحمة الشعرية عام (1591م) أي قبل قيام الثورة الفرنسية (1789م) أي بما يقارب ثلاثمائة عام، ومعلوم أن الثورة الفرنسية في نظر الباحثين تعد البداية التأسيسية النظرية للفكر القومي في أوروبا. وعندما نتصفح ملحمة أحمد خاني نجد أبياتا واضحة تتحدث عن تشتت الأمة الكوردية وتفتتها بين الدول، وعن الظلم الواضح بحقهم من قبل الأمم التي كانت تحكم آنذاك، وعن ضرورة الوحدة والاتفاق بين الكورد للوصول إلى تحقيق كيان مستقل يحفظ الأمة الكوردية من البلايا والرزايا، ولضيق المجال لا أستطيع ذكر تلك الأبيات وترجمتها وتحليلها، ويمكن مراجعة الكتاب نفسه. والغريب أن أحد الإسلاميين الكورد ينكر كون الشاعر أحمد خاني كتب ملحمة لنشر الدعوة إلى قيام دولة كوردية مستقلة<sup>52</sup>.

2) إن القومية الكوردية لم تتحول في نضالها الطويل إلى أداة ثقافية تعادي الدين، أو تحل محله، كما هو الحال بالنسبة للأمم الأخرى، فقد كان الدين دائما يحتل مكانته المقدسة بين الكورد وخاصة بين قادتهم، وجميع الثورات الكوردية التي قامت واندلعت كانت تسير على المنهج نفسه، خذ مثلا: حركة محمد باشا الرواندوزي المعروف بميركور (1832م-1836م) والأمير بدرخان (1846م-1847م) ويزدان شير (1853م-1855م) وعبيد الله النهري (1878م-1881م) وعبد السلام البارزاني (1907م-11914م) وسمكو آغا شكاك (1921م-1922م) ومحمود الحفيد البرزنجي (1922م-1924م) وسعيد

---

<sup>52</sup> وهو الكاتب محمد يوسف في مقال له بعنوان: عندما يلجأ اليأس إلى الشتيمة، وهو بذلك يرد على الدكتور جمال نيز في رسالة ألفها بعنوان: المستضعفون الكورد وإخوانهم المسلمون: انظر مجلة نالاي ئيسلام (السنة الحادية عشرة، العدد الرابع، 1418هـ، 1998م) ص21.

بيران (1925) وأحمد البارزاني (1931م) وإحسان نوري باشا (1927م-1933م) وقاضي محمد (1947م) وملا مصطفى البارزاني (1943م). وما تأسيس اتحاد علماء الدين الكورد إلا دليل واضح على ما نحن بصددده. لا شك أنه كان بين الكورد مثقفون يحاولون تغيير المسار نحو المذاهب والحركات المعادية للدين، ولكنهم لم يفلحوا، ثم إننا نتحدث عن المسار العام لتلك الثورات، وليس عن نماذج طائشة في التاريخ.

(3) إن القومية في طبيعتها ينبغي أن تكون وسيلة لتحقيق الأهداف النبيلة، والحديث عن القومية بالنسبة للأمم التي لم تكون لنفسها كيانا قوميا مستقلا، أو إداريا ذاتيا ضروري وواجب، وذلك لأن البعد القومي هو الذي سيحفظ لأي كيان تاريخه وثقافته وحضارته وعاداته ولغته ووطنه، وعندما يتضعض ذلك البعد ينهار كل شيء، ودعني أكون أكثر صراحة، إن الواقع الكوردي يفرض عليه الاهتمام الجدي والعملية بالبعد القومي أو الوطني، بينما التوقع حول أي بعد آخر وخاصة البعد الديني في هذه الظروف يوقع مصير الأمة الكوردية إلى زوال وانشقاق وتمزق، وسب ذلك واضح، وهو أن البعد الديني في فلسفته قابل لتفسير شتى، وما إشكالية الأديان المختلفة، والمذاهب الدينية، والآراء الفقهية المتنوعة، إلا طريق وعر لخلق مشاكل أكثر في واقع عصيب مر، لا يمكنه أن يتحمل أكثر مما هو عليه. فالأمة الكوردية بحاجة إلى وسيلة تجمع التلون الديني والتنوع المذهبي والتباين القومي، في كيان واحد يرضي جميع الشرائح والطبقات. وفي تقديري أن الأمم التي استقلت، وكونت لنفسها كيانا أيا كان نوعه ليست بحاجة إلى الحديث عن القومية بالدرجة التي يتحدث عنها الأمم الأخرى، وأعني الأمم التي لا تفتأ تبحث عن مصيرها. يقول أحد الكتاب: "والملاحظ أن الاستعمار أعطى للقوميات العربية والفارسية والتركية دولا خاصة بها، أما الأكراد فلم يمنحهم دولة خاصة بهم، ولو صغيرة بقدر مساحة البحرين أو الكويت... لماذا؟"<sup>53</sup>.

<sup>53</sup> الطائي، نجاح عطا: الفكر الإسلامي إسلاميا وتاريخيا: (إيران، سبهر، ط1، 1406هـ، 1986م)

4) إن الكورد ليسوا غرباء في الأماكن التي يتواجدون فيها، بل هم أصحاب تلك الأرض الحقيقيون، فهم ليسوا كاليهود استوطنوا أراضي غيرهم، فالتاريخ أثبت أصالة هذه الأمة، فهم عندما يدعون إلى تأسيس كيان، يدعون إلى استرداد حقهم المهضوم، فالاستعمار هو الذي قسم كيانهم، ووزعهم على الدول المعروفة. ولقد أشار علماء الانثروبولوجيا أن الشعب الكوردي عريق وأصيل بنى حضارة مرموقة، وهي كانت جزءا من الحضارة الآرية *Arian Civilization* عرفت بإمبراطورية ميديا *Meedi Empire* وعاصمتها همدان *Hamadan* أو أكبتان *Akbatan* على أنقاض الامبراطورية الآشورية عام (612 ق.م).<sup>54</sup>

ومع وضوح هذه الحقيقة وجلاءها نجد أن أحد الكتاب ينصح الكورد بما يأتي: " فلماذا تطالبون بالابتعاد والانفصال؟ وإخوتكم حريصون عليكم حرصهم على أنفسهم، هل ظلمتم؟ هل أهنتم؟ ألا تقبلون وأنتم الأقلية المساواة بالأكثرية، فلم هذه اللوثة، والوطن واحد، والهدف واحد، والمصير واحد"<sup>55</sup>. ومثل هذه التوصيات والنصائح قد عفى عليها الزمن وشرب، فنحن الآن في عصر العولمة والتكنولوجيا والتطور والتقدم والديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان، ومشكلة الأقلية والأكثرية قد ولت إلى غير رجعة، ثم إن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا من الذين يجهلون الواقع الكوردي تماما، وما عاناه من ظلم وقهر واضطهاد من السلطات المتعاقبة في العراق.

5) إن القومية الكوردية في مسيرتها الطويلة لم تكن سببا في تقسيم الأمة الإسلامية، فما حصل في التاريخ من انشقاق وتفرق يرتد إلى الاستعمار الغربي الذي تغلغل في البلاد، وقسم الشعوب المسلمة، ووزعها على دويلات قومية، والكورد بلا ريب ضحية ذلك التقسيم، فهم الأمة الوحيدة التي لم تنل استقلالها كبقية شعوب المنطقة، ولأجل ذلك فهم يحاولون إصلاح ما أفسده الاستعمار، ولا يعني ذلك تشكيل دولة كوردستان الكبرى كما يقع حول ذلك البعض، بل لقد رضي الكورد بأقل من ذلك وهو المساواة والمواطنة الحقيقية في ظل نظام ديمقراطي وتعددي فدرالي،

---

<sup>54</sup> *Brifcani: Mustafa Barzani Leader of Modern Kurdish National Movement (Great Britain, Kegan Pual International) Pp 25.*

<sup>55</sup> سنقرط، داود عبد العفو: العروبة والإسلام (عمان، دار عمار، ط1، 1404هـ، 1983م) ص231.

وهو ما دعا ويدعو إليه الكورد في جميع المناسبات، ولا ننسى حق الكورد الطبيعي في تشكيل دولته القومية كبقية الشعوب والأمم، ولكن في الظروف الحالية البقاء مع العراق هو الأنسب لتعقد الظروف وصعوبتها، وكثرة المعوقات والمشاكل. وينضاف إلى ما سبق أن الكورد دائما في منظور البعض سبب القلاقل والمشاكل، مع أن الحقيقة والواقع والتاريخ يثبت خلاف ذلك، فلولا الكورد لأصبح العراق دويلات متعددة، ثم إن ما اتخذته الكورد من مواقف سياسية خلال هذه الفترة -أعني منذ سقوط نظام صدام- كانت مواقف في صالح تطوير البلد وتقدمه وازدهاره، ثم إن تلك المواقف صنفها بعضهم في كونها خطرا على وحدة الأمة الإسلامية، ولا مناص أن هذا المفهوم القرآني المبارك لا وجود له في مخيلتهم من الناحية العملية، بل إنه مفهوم مثالي يتحدث عنه الخطباء والدعاة في المناسبات الدينية. ولعل خير مثال على ذلك مفهوم الفيدرالية *Federalism* فقد فهم الكثير أنها تعني التقسيم والانفصال مع أن الكلمة في جذرها تعني الاتحاد، ولقد اختار الكورد الفيدرالية لكونها نظاما عالميا معروفا يصلح للواقع العراقي المتنوع، فأين التقسيم من هذا، ولقد تأثر أحد الإسلاميين الكورد بهذه الدعوة قائلا: "لذلك فإن الإسلاميين في كل مكان، وخاصة في كردستان مدعوون للوقوف في وجه كل المخططات التي ترمي إلى تقسيم الشعب المسلم في العراق"<sup>56</sup>.

---

<sup>56</sup> مقال للدكتور عثمان علي: ملاحظات حول الفكر القومي الكوردي) مجلة نالاي نيسلام (ماليزيا، السنة العاشرة، العدد الثاني، 1417هـ، 1996م) ص15.

## الخاتمة

يتضح لنا مما سبق أن الانتساب إلى القومية من أجل الحفاظ على الهوية، وعدم الذوبان والانصهار في بوتقة القوميات الأخرى، ومن أجل تحقيق فلسفة التعارف التي أكدها القرآن الكريم ضرورة اجتماعية وإنسانية وثقافية، وقد كان هذا الأمر طبيعياً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فلم يثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكر على أحد لكونه انتسب إلى قومه وقبيلته وعشيرته وقريته، بل إنه صلى الله عليه وسلم أنكر الحالات الثلاث التي أشرنا إليها سابقاً، وهي أن تتحول القومية إلى أداة للظلم والاضطهاد، وقد سماها النبي صلى الله عليه وسلم بالعصبية، والحالة الثانية تحقير القوميات الأخرى والازدراء بها، والثالثة أن تحل القومية محل الدين كما حدث ذلك في فترات التاريخ المتعاقبة.

ولكي نحقق التعايش السلمي والأخوي بين الأمم والشعوب المختلفة، فإننا بحاجة إلى قراءة جديدة لبعض النصوص الدينية المتعلقة بهذا الموضوع، حيث من المعلوم أن ثمة كتباً ورسائل عديدة صنفت البشرية تصنيفاً مخيفاً ومروعاً، جاهزا للصراع والقتال والحرب، تذكى روح البغض، وثقافة الكراهية، ومبدأ إلغاء الآخر، مع أن فلسفة الإسلام الحقيقية ترفض ذلك رفضاً، فقد ذكر الله تعالى أن البشر كلهم إخوة، وهذه هي الإخوة الإنسانية الترابية الأزلية قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }<sup>57</sup> ، وأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بقوله في حديث أبي هريرة: "الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب"<sup>58</sup> . ومعنى ذلك أن البشر كلهم من أب واحد وأم واحدة، فكيف يسوغ هذا التفرق والتشردم والتناحر في العائلة الواحدة، وفي البيت الواحد، ألا وهي هذه الأرض التي استخلفنا الله فيها. وفي هذه الأرض أوطان وبلدان يسكنها أقوام وشعوب، كل رضي بالاستقرار في وطنه دون وطن غيره، وعن رغبة منه، وليس عن جبر وقسر وقهر، فالذين يسكنون في العراق مثلا أقوام مختلفون، وأديان مختلفة، لكنهم في النهاية إخوة في الوطن، يجمعهم بيت واحد وهو العراق، فهم عائلة واحدة في بيت واحد، والأغلبية في كردستان كورد، فجميع الكورد على مختلف دياناتهم إخوة في القومية، فالقومية بالنسبة لهم بمثابة الأم، وبمثابة البيت الواحد الذي يجمع بينهم، وفي هذا البلد الأغلبية مسلمون، فجميع المسلمين إخوة في الدين وهذا معنى قوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }<sup>59</sup> . فإن ما يجمع بين البشر من العلاقات الأخوية أكثر بكثير مما يفرقهم، فمن غير المعقول أن نضحى بإخوتنا من أجل تحقيق مصالح ومآرب تافهة. والحقيقة أن الاختلافات بشتى ألوانها وأنواعها تاركة لرب العالمين، فهو ملك يوم الدين، فينبغي أن لا تشتتنا الاختلافات ووجهات النظر، فليرى كل إنسان نفسه على حق، ويرى غيره على باطل، ولكن لا يدفعه هذا إلى إلغاء الآخر والازدراء به وتحقيره والتنقيص من قدره، ومن ثم سحقه ومحقه وإفناءه، بل يحق لكل إنسان ما يحق لأخيه من حقوق وواجبات، فالكل سواسية، وأفضلهم عند الله أتقاهم، وعند البشر أنفعهم للبشرية. ألا ترى ما عاناه الأنبياء والرسل من تعذيب وقتل وتشريد وإهانة وإيذاء من قومهم، ولكن مع ذلك لم يبادل نبي عليه السلام قومه بالأسلوب نفسه، ولم ينكر أحد أصله، فينتسب إلى غير قومه كرد فعل على تصرفات قومه، وما عاناه محمد صلى الله عليه وسلم من قومه قريش من إخراج من

<sup>57</sup> سورة النساء الآية 1.

<sup>58</sup> رواه أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رقم الحديث 10791 والبيهقي في سننه باب شهادة أهل

العصية رقم الحديث 21593.

<sup>59</sup> سورة الحجرات الآية 10 .

مكة، وتعذيب لأصحابه، والتمثيل بهم، لم يدفعه يوما ليغير أصله، فينتسب إلى غير قومه، بل إنه صلى الله عليه وسلم افتخر بقرشيته التي ينتمي إليها.

قد يغير الإنسان دينه، فيتحول من دين إلى آخر، وحسابه على الله، ولكن لا يمكن للإنسان أن يتحول من قومية إلى أخرى، ومن قبيلة أو عشيرة إلى أخرى، والدول العنصرية التي حاولت اقتفاء هذه السياسية لم تفلح، بل فشلت، وكانت نقطة سوداء في صفحات تاريخها، وهذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المسألة بطريقة أخرى، فعندما أرسل الله الأنبياء والرسول إلى الأمم والشعوب، اختار رجلا من بينهم ليكون لهم رسولا، وقد استعمل القرآن الكريم مصطلح "الأخ" لإثبات الأخوة القومية، قال تعالى {وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} <sup>60</sup>، و{وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا} <sup>61</sup>. وفي آيات أخرى يؤكد هذه الأخوة، وهي أشد وقعا في النفوس. قال تعالى {إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} <sup>62</sup>، و{إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} <sup>63</sup>، و{إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} <sup>64</sup> و{إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ} <sup>65</sup>. وعندما نمنع النظر في قصة شعيب عليه السلام نجد الاختلاف في الاستعمال القرآني، فمرة قال: {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} <sup>66</sup>، حيث أثبت الأخوة بين شعيب عليه السلام وقومه من أهل مدين، وفي الآية الأخرى لم يثبت الأخوة، فلم يقل إذ قال لهم أخوهم شعيب، كما قال بحق الأنبياء والرسول السابقين مثل نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام، بل قال {إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} <sup>67</sup>، وسبب ذلك أن شعيب عندما أرسل إلى قومه في مدين سماه أخا لهم، وعندما أرسل إلى غير قومه وهم أصحاب الأيكة لم يسميه أخا، بينما بقية الأنبياء سماهم بذلك، وفي سورة الشعراء نجد الآيات جميعها تسمي الأنبياء كلا

---

<sup>60</sup> سورة الأعراف الآية 65.

<sup>61</sup> السورة نفسها 73.

<sup>62</sup> سورة الشعراء الآية 142.

<sup>63</sup> السورة نفسها 106.

<sup>64</sup> السورة نفسها 161.

<sup>65</sup> السورة نفسها 124.

<sup>66</sup> سورة الأعراف الآية 85.

<sup>67</sup> سورة الشعراء الآية 177.



من صالح ونوح ولوط وهود عليهم السلام أخوة لهم، باستثناء شعيب فيجعله غريبا عنهم، لأن شعيبا عليه السلام كان غريبا عنهم، ولم يكن من أصحاب الأيكة، قال تعالى {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} <sup>68</sup>. ولا يعني هذا نفي الأخوة الأخرى كالأخوة الإنسانية، ولكن القرآن الكريم هنا بصدد الحديث عن الأخوة القومية أو الوطنية كما في قصة الأنبياء والرسل.

---

<sup>68</sup> سورة النمل الآية 88.

## المصادر والمراجع

- ابن خلدون: المقدمة تحقيق: درويش الجويدي (بيروت: المكتبة العصرية، ط2، 1416هـ، 1996م).
- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة تحقيق علي محمد البجاوي (بيروت، ط1، دار الجيل، 1412هـ، 1992م).
- الجاحظ: رسالة الحنين إلى الأوطان من سلسلة رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت، دار الجيل، ط1411هـ، 1991م).
- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري تحقيق (بيروت، دار المعرفة، 1379هـ).
- أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشم الأنصاري: شرح قطر الندى وبل الصدى تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (مصر، مطبعة السعادة، ط11، 1383هـ، 1963م).
- ابن منظور: لسان العرب (بيروت، دار صادر، ط1، د.ت).
- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (دم. دار الكتاب العربي، 1387هـ، 1967م).
- كارين أرمسترونغ: النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام ترجمة: محمد الجورا (دمشق، دار الكلمة، ط1، 2005م).

- أليكس، جورافسكي: **الإسلام والمسيحية**، ترجمه عن الروسية: خلف محمد الحداد(الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1417هـ، 1996م).
- آزر طبري: دور رجال الدين في سياسات إيران الحديثة، انظر: **الدين والدولة في إيران**، مجموعة مقالات لكبار المفكرين الغرب، ترجمه أستاذنا الدكتور عرفان عبد الحميد فتاح(ماليزيا، دار التجديد، ط1، 1423هـ، 2002).
- كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي(بيروت، دار العلم للملايين، ط2، 1979م).
- إسماعيل، زبير بلال: **ثورات بارزان 1907م - 1935م** (كوردستان، مطبعة وزارة الثقافة، ط1، 1988م) ص36.
- رضوان السيد: **سياسات الإسلام المعاصر**(بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1418هـ، 1997م).
- فاروق حمادة: **بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر**(د.م، دار الثقافة، ط1، 1407هـ، 1989م).
- ابن تيمية الحراني: **مجموع الفتاوى الكبير**(د.م.ن.ط، 1398هـ).
- . الطائي، نجاح عطا: **الفكر الإسلامي إسلاميا وتاريخيا**: (إيران، سبهر، ط1، 1406هـ، 1986م).
- سنقرط، داود عبد العفو: **العروبة والإسلام** (عمان، دار عمار، ط1، 1404هـ، 1983م).
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: **أدب الدنيا والدين** تحقيق محمد أبو الخير السيد ومحمد الشرفاوي (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1447هـ، 2006م).
- برتراند رسل: **حكمة الغرب** ترجمة د.فؤاد زكريا (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1983م) .

